المحاضرة السّادسة:

مناهج البحث اللّغوي في التّراث

الكفاءات المستهدفة :

-أن يتعرّف الطّالب على البحث اللّغوي ومناهجه في التّراث الغربي.

- أن يتعرّف الطّالب على البحث اللّغوي ومناهجه في التّراث العربي.

تمهيد:

بدأت العلوم اللّغوية بالظّهور نتيجة عناية الإنسان باللّغة،وذلك عندما شعر بأهميّتها كونها أداةَ تواصلٍ تُمَيِّزه عن غيره ، وتستطيع أن تُخَلِّد فكره ، وتحفظ آثاره .

والعناية باللّغة كانت في أكثر من مركز من مراكز الحضارات القديمة ؛ في الهند واليونان وبلاد الرّافدين وبلاد الشّام ، لكنَّ ما نشأ في كلِّ مركز من هذه المراكز كان بمعزل عمَّا نشأ عند الآخر، نتيجة لعدم التّواصل بينهم .

أمّا البحث اللّغوي فهو حديث النّشأة ،ولم تتضّح معالمه والخصائص المميّزة له إلّا مع التّقدم العلميّ،ولكن ما نلحظه في الدّراسات الغربيّة والعربية القديمة أنّه أثناء ممارستهم العمليّة في دراسة اللّغة كانوا يعتمدون في ذلك على مناهج البحث العلمي بطريقة غير مباشرة على اعتبار أنّ منهج البحث هو طريقة موضوعيّة يتّبعها الباحث لدراسة الظّاهرة من الظّواهر بقصد تشخيصها وتحديد أبعادها ومعرفة أسبابها وطرق علاجها، والوصول إلى نتائج عامّة يمكن تطبيقها.

والمتأمّل للدّراسات اللّغوية القديمة يجد أنّ علماء تلك الأمصار قد اعتمدوا في دراستهم على المنهج العلمي، الذي كان الأساس في قيامه وظهوره وإنتاجه هو طريقة النّظر لتحصيله، فالأكيد أنّ علماء تلك الأمصار قد اعتمدوا في تحصيل ذلك على التأمّل بالعقل،وطريقة النظر تلك تختلف من عصر إلى عصر ومن مصر إلى مصر.

أولا: البحث اللغوي في التراث الغربي:

إنّ ظهور الدّرس اللّغوي ليس جديد العهد، وإنّما يعود تاريخ نشأته إلى قرون قبل الميلاد، وتتّفق جلّ آراء الباحثين اللّغويين والمؤرّخين على أنّ الدّرس اللّغوي بدأ أوّل ما بدأ عند الهنود في القرن الخامس أو الرّابع قبل الميلاد على يد بعض اللّغويّين الهنود، وعلى رأسهم بانيني(PANINI)، وظهرت تلك الدّراسات لأجل المحافظة على النّصوص المتمثّلة في كتب الفيدا المقدّسة وحماية اللّغة السّنسكريتية من التحريف[1] ،فاهتمامهم بدراسة لغتهم في هذا الوقت المبكّر كان لهدف ديني وجاءت دراستهم للّغة السّنسكريتية على درجة عالية من التّنظيم والدقة،واشتملت هذه الدّراسة على علم اللّغة،وفروعها من دراسة الأصوات، والاشتقاق والنّحو والمعاجم، وفقه اللغة.

[1] **اللّسانيات النّشأة والتّطوّر**،أحمد مومن، ط2،دار المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 2005م، ص 12.

وأهم دراسة أظهروا فيها تفوّقهم: الدّراسات الصّوتية خاصّة، ثم النحووفي هذا الشأن يقول ليونز« إنّ التّصنيف الهندي للأصوات الكلاميّة كان تصنيفا مفصّلا ودقيقا مبنيا على الملاحظة والتّجربة ولم يبلغ أحد ما بلغه هؤلاء»[1]، إنّ أهمَّ ما يثبت ذلك هي طريقة تناولهم للجانب الصّوتي للّغة ، وهي طريقة تكاد تلامس ما ذهب إليه الدّرس الصوتي الحديث ؛يقول أحمد مختار عمر :ويكفي الهنود فخرا أن تكون جهودهم الصّوتيّة هي الأساس الذي بنى عليه علماء الأصوات المحدثون[2] ، كما تميّزت دراسة بانيني بثلاث خصائص أصبحت فيما بعد مقاييس موضوعيّة في دراسة كلّ ظاهرة لغويّة ،وقد تبنّت اللّسانيات الحديثة هذه المعايير العلميّة في دراستها للّغة وهي: الشّمولية والانسجام والاقتصاد[3].

لم يعرف الإغريق دراسة للّغة مثل تلك التي عرفها الهنود، فرغم عظمة وسعة التّراث الحضاري الإغريقي إلا أنّنا لا نجد قسطا وفيرا للدّراسة اللّغوية عدا تلك الآراء الفلسفيّة التي جاءت في بعض المناقشات بين الفلاسفة الإغريق حول نشأة اللّغة، فقد رأى علماء اللّغة المعاصرين أنّ الدّراسات اللّغويّة عند الإغريق في القرن الرّابع قبل الميلاد ابتعدت كثيراً عن المنهج العلمي بمفهومه الحديث ؛ حيث أن نظرتهم لدراسة اللّغة كثيرا ما كانت تخلط بين التّفكير اللّغوي والفلسفي[4].

واليونانيون هم بدورهم درسوا لغتهم دراسة صوتيّة وصفيّة، وكانت دراستهم للغتهم تكاد تكون متزامنة مع دراسة الهنود،والتّفكير اللّغوي عند اليونانيين بدأ مرتبطاً بالفلسفة، وكان اللّغويون الأوائل فلاسفة والبداية الحقيقية لدراسة لغتهم كانت منذ زمان، "أوربيدس 480-406ق. م" الذي فرق بين حروف العلّة والحروف الصّحيحة، ثم جاء بعده "أفلاطون حوالي "428-347ق. م" ويعرض التّحليل الصّوتي لوحدات التّقطيع الثّاني في حواره كراتيل Cratyle وجاء بعده "أرسطو 384-322 ق.م" وتناول التّحليل الصّوتي في كتابه "فن الشّعر" وعرف الصّوت "الحرف" و حدوثه في اللّسان والشّفتين[5]....

---

[1] **اللّسانيات النّشأة والتّطوّر**، أحمد مومن، ص 12.

[2] ينظر :**البحث اللّغوي عند العرب مع دراسة لقضيّة التّأثير والتّأثّر**،أحمد مختارعمر ،ط6،عالم الكتب،القاهرة،1988م، ص61.

[3] ينظر: **اللّسانيات النّشأة والتّطوّر**، أحمد مومن، ص 14 .

[4] ينظر: **البحث اللّغوي عند العرب مع دراسة لقضيّة التّأثير والتّأثّر**، أحمد مختار عمر، ص63.

[5] **المرجع نفسه** ، ص 61-62 ، وينظر: **علم اللّغة، مقدّمة للقارئ العربي** ، محمود السّعران، ،ط2، دار الفكر العربي 1997م، ص87-88.

أمّا الرّومان فقد كانوا تلاميذ أوفياء لأساتذتهم الإغريق وقد طبّقوا أغلب المقولات اللّغوية اليونانيّة في وصفهم للغتهم اللاتينية [1] ،ومن أشهر نحاتهم "فارو "Varron وكتابه اللّغة الاتينية ،وقد قسّم فيه الدّراسة اللّغويّة إلى الاتيمولوجيا والصّرف والنّحو ثم "دوناتوس "Donatus الذي برع في صناعة النّحو" ثم "بريسيان Priscien الذي أسهم في ظهور النّحو التّعليمي للّغة االلاتينية ،وله مؤلّف عكس فيه المنظومة القواعديّة اللّاتينية المتأثّرة بجهود اليونانيين[2] ، والأمر نفسه تقريبا يُقال عن النّشاط اللّغوي السّرياني في القرن السّادس الميلادي" القرن الأوّل قبل الهجرة النّبوية" نتيجة احتكاك السّريان باليونان منذ القدم، ولذلك ترجم السّريان النّحو اليوناني إلى السّريانية ،ونقلوا إلى لغتهم الكثير من الكلمات والإصلاحات وقلّدوا اليونان في نحوهم وقواعدهم[3].

أمّا الصينيون فقد تأثروا في دراساتهم للغتهم بعلماء الهند وبطريقتهم ونظرتهم للّغة بدءا من القرن الأوّل الميلادي ؛ وقد بدا هذا التأثّر أكثر وضوحا في القرن السّادس الميلادي بظهور نظام جديد للمعاجم الصّينية رتّبت فيه الكلمات صوتا تبعاً لنطقها،فكلّ الكلمات ذات الصّوت الواحد في باب واحدٍ بعض النّظر عن اختلاف طرق كتابتها[4].

وعليه يتّضح أنّ علماء اللّغة في التّراث الغربي كانوا يوظّفون المنهج العلمي كوسيلة للتّفكير في دراسة اللّغة ونخصّ منهم الهنود فقد كانت دراساتهم اللّغويّة أقرب إلى المنهج العلمي منه إلى المنطق الفلسفي.

ثانيا: البحث اللّغوي في التّراث العربي:

كان العرب كغيرهم من الأمم السّابقة سبّاقين لدراسة لغتهم، بعد أن استقرّ الدّين الإسلامي واعتنقوه عقيدة في عبادتهم، فكان أن اهتمّوا بوضع ما يحفظ المصحف الشّريف ويصونه أثناء تلاوته وحفظه خشية الوقوع في اللّحن والتّحريف، والتّصحيف، في زمن أخذ فيه الاختلاط يعمّ الجزيرة العربيّة بين الأعجام والعرب الخلّص بسبب وحدة الإسلام، ولم يلبث

---

[1] ينظر: **محاضرات في اللّسانيات المعاصرة**،بوقرة نعمان، مشورات جامعة باجي مختار،عنابة ،2006م، ص 64.

[2] ينظر: **المرجع نفسه** ، ص 64-65.

[3] ينظر: **البحث اللّغوي عند العرب مع دراسة لقضيّة التّأثير والتأثّر**، أحمد مختار عمر، ص 65-66.

[4] ينظر: **المرجع نفسه** ، ص 74-75 .

الرّجال المخلصون لعقيدتهم الإسلاميّة، والغيورون على لغتهم العربيّة التي بها نزل القرآن الكريم، أن دفعتهم فطرتهم الذّاتية وإيمانهم القويّ، فهبوا لوضع قواعد نحويّة في بادئ الأمر كمرحلة أولى لتصون الألسنة من الوقوع في اللّحن الذي أخذ يتفشّى حتى في بيوت الأشراف من العرب وعلماء الأدب.

إنّ البحث اللغوي عند العرب بدأت بوادره في وقت مبكّر جدًا بعد مجيء الإسلام ،وكانت دراستهم للعربيّة قد انطلقت في بداية أمرها من الظّاهرة الصّوتية النّحوية المتمثّلة في تنقيط الإعراب زمان أبي الأسود الدّؤلي(ت 68هـ) مع كاتبه حينما هم بوضع ضوابط لقراءة القرآن [1] بداية لمرحلة سوف تكون مرحلة الازدهار للدّرس اللّغوي في جميع خصائصه وتخصصاته، من دراسة مفردات أو دلالة، ونحو وصرف ودراسة صوتية، وبلاغية أو غيرها.

ويمكن أن نقول«إنّ العرب في القديم سلكوا مسالك أوليّة في البحث اللّغوي عندما كانوا يجمعون اللّغة حيث اتّجهت الدّراسات اللّغوية وجهة عمليّة في التّبويب و الفهرسة والتّصنيف وفي إقامة مدوّنات أنتجت معاجم عامّة ومتخصّصة،ويمكن أن يعد ذلك صفة أولية من صفات البحث العلمي المنهجي ، وبخاصّة في باب التّحريات اللّغويّة التي كانت تتّجه إلى البادية ، ويضاف إلى ذلك تلك القوانين الصّارمة المحدودة في الزّمان والمكان لقبول اللّغة الصّافية» [2] ،وفي ذلك دلالة على أنّ علماء العربيّة قد وظّفوا في أبحاثهم اللّغويّة أصول منهج البحث العلمي ،ولم يبتعدوا عنه لا من حيث الإطار الفكري الذي يعمل من خلاله العقل، ولا من حيث الخطوات التّطبيقيّة، إذ نلفيهم قد استعانوا بالاستقراء والاستنباط كأسلوب تفكير وبحث،عُدّتهم في ذلك الملاحظة الدّقيقة الواعية، وأخضعوا كل ذلك للتّجريب.

والباحثون يرون أنّ علماء العرب قد انتهجوا منهجا متميّزا في البحث اللّغوي كان يقوم على تذوّقهم وإعمال العقل ودقّة الملاحظة كما أنّ النّظريّة اللّغويّة العامّة في التّراث العربي تقوم على إجراءين بارزين هما : التّصنيف والتّحليل هذا إلى جانب الإجراء الوصفي[3]؛ ولذلك

---

[1] ينظر: **محاضرات في اللّسانيات المعاصرة** ،بوقرة نعمان، ص 26.

[2] **في المناهج اللّغوية والمنهجيّة** ، صالح بلعيد ، ص 15.

[3] ينظر: **مناهج البحث اللّغوي عند العرب في ضوء النّظريّات اللّسانيّة** ، نسيمة نابي، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر،2011م، ص 45.

جاءت دراساتهم اللّغويّة أكثر دقة وتماسكاً من غيرهم من الأمم ،ومن اللّذين برعوا وتفوّقوا في التّأليف والتّقعيد اللّغوي والصّوتي والبلاغي على سبيل المثال لا الحصر، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ)، وسيبويه (ت 180هـ)، ويونس بن حبيب(183هـ) أحمد بن فارس(ت312هـ)، وابن جني(ت 395هـ)، وعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)، والزمخشري (ت 538هـ)، والسكاكي (ت 626هـ)، وغيرهم ممن قدموا خدمات جليلة للعربيّة ومجالات الدّراسة بصفة عامّة، وإنّ نظرةً ممعنة في أبحاثهم تدلّ على أنّهم قد وظّفوا المناهج المعتمدة اليوم في الأبحاث اللّغوية، وأكثر المناهج وضوحاً في أدائهم هو المنهج الوصفي، ثم المنهج التاريخي، وقلما استعانوا بالمنهج المقارن[1]، ونادرا ما كانوا يلجؤون إلى المنهج التّقابلي،غير أنّهم لم يُسمُّوها بهذه الأسماء ولم يصفوها بالوصف الذي جاء به العلم الحديث، كما كان علماء العربيّة الأوائل على وعي كامل بأنّ مناهج البحث العلمي واللّغوي هي مناهج متكاملة لا يُناقض بعضها بعضا ، فكثيراً ما كانوا يُوظّفون في العلم الواحد وفي البحث الواحد منهجيِّن أو ثلاثة؛ إلاَّ أنَّ المنهج الذي نال حظّا وافرا في أبحاثهم هو المنهج الوصفي، لاعتمادهم في كلّ أبحاثهم على اللّغة المنطوقة عن طريق المشافهة والسّماع.

[1] ينظر: **أسس علم اللّغة العربيّة** ،محمود فهمي الحجازي ، دار الثقافة للطباعة والنشر ،القاهرة ، مصر،2003م، ص 123-125.